



الصورة النمطية في المجتمعات العربية تكاد تكون متطابقة كلياً في الإقصاء الفكري للآخر، بل وحتى نبذه وقمعه. ففي داخل العائلة الواحدة يخضع الجميع لسلطة شخص واحد لا يستطيع أحد غيره أن يثير حواراً حقيقياً ضمن الأسرة، وإن جِيز وسمح له فلا يُعتَد برأيه، وفي المدرسة يستقبل الأساتذة التلاميذ وحتى أطفال الحضانة مدججين بالهروات وتلك الوجوه الكالحة التي لا تعرف الابتسام، لا تصدر من أفواههم سوى أوامر الانضباط والصف في الطابور، وفي قاعة الدرس يسود الخطاب السامي ولغة الجادة حفاظاً على المقام العالي بينما العصا في يد المعلم لا تميز ذلك التفاوت في قدرات التلاميذ الفكرية أو حتى درجة تقبل أي منهم للتعنيف باستعمالها، ولا ذلك الشعور بالخوف الذي قد يحيل هواء الصف إلى رائحة ترکم الأنوف، وقد لا يستطيع الفراش تحمل إزالتها أمراً قد يؤدي للإطاحة به مستقبلاً.

إنها الصورة الحقيقية للصف وكامل المدرسة المحاطة بالأسوار العالية، فتبعد وكتأها وحدة صاعقه عسكرية من الحقيقة السوفيتية السالفة، تعظم الفائد الرمز البطل الملهم الشجاع صانع المطر والزرع والخلق.

في السياق الاجتماعي أنت مجبر لمراجعة دوائر حكومية؛ لذا اخلع نعليك أنت في الوادي المقدس طوى، يجب أن تخفض رأسك وأن تخفت من صوتك، وأن تطيع كل ما تؤمر به وقد يطلب منك دفع الرشوة، وأن تذهب لشراء سندوتش الشورمة وعلى نفقتك الخاصة لعدد من الموظفين، وأن تشكر السادة الموظفين لتكريمهم بمنحك شرف إحضار الشورمة لهم وذلك ليكتمل مشهد إذلالك، وأما إن ترفض كل ذلك وعندها لن تنجز معاملتك، بل وقد ويطلب لك الأمان وتعنف بالعصا واللسان البذيء بتهمة الاعتداء على موظف رسمي أثناء تأييده واجبه القومي، وقد يسبد بك الشعور بالظلم فتصرخ من الألم فتصبح مجرد رقم دون على باب زنزانة.

لا لست أنت وحدك من يُذل؛ فالجميع ضمن هذه المنظومة أذلاء كل حسب درجة، وتقبيل الأيدي والأرجل يبدأ من عند الفراش لينتهي داخل القطر العربي الواحد عند الرئيس أو الملك أو السلطان، وهذا الأخير مسكون مشغول بتقبيل أيدي وأرجل في بلاد غريبة بعيدة، ويشتري لغيره هامبرغر مجموع ذميم ومدحور - الله لا يرده -.

في الشارع يجب أن تكون حذر فليس كل الأحاديث تؤدي إلى المنزل، فثمة أحاديث تقود إلى أماكن ضيقة ومعتمدة رطبة

يندر بها طعام مقبول وتتذرع مغادرتها أيضاً. الحوار من نوع وأحزاب المعارضة يستحيل أن تتفق أو يذكر أحداً لآخر أي حسنة حتى وإن وجدت بالفعل. لا أحد يعترف بأي حق لآخر حتى لو كان صرخ أو بكاء أو تظاهر سلمي مليون بـالمليون، حتى يُسمح لك بالتنفس يجب أن تغلق فمك، وحتى يسمح لك ب الطعام وإن كان شيء يجب أن تصفق وبحرارة فيُخلق فيك طبع الأنانية والكرهية ونبذ الآخر، بل إقصاؤه وتعنيفه وتحال حياتك إلى ما يسمى عسكرياً معركة السلاح الأبيض، أي تخليص أرواح، فكيف لفرد في سياق هذا القطيع عاش وكبر وقد يهرم ولا يعرف الحد الأدنى لممارسة احترام الآخر فكراً وحقاً وجوداً أن يمارس ولو حدود دنيا من التشاركية، وفهم حقوق الآخرين؟؟!!

ألم ننطلق في سلوكنا حماية لمصالحنا من أطر بدائية كالعشيرة أو الطائفة وسوها من الأشكال البدائية الذمية، وإن كانت حتى داخلها نفسها منقسمين ومتصارعين أعلى حدود التصادم والانقسام، أسياد وعبيد، فتبني بها سدود كي لا نرى الآخر أو حتى نسمعه!!! أليس الإقصاء ونبذ الآخر ونكران حقوقه سلوك الحيوانات الوحشية اللاحمية؛ كالضواري مثلاً، تلك التي تتخلق حول جسد الضحية فمجرد اقتراب حيوانات ضئيلة القوة أو الحيلة قدرها أنها لاحمة أيضاً من الضحية أمراً قد يكلفها حياتها. لا نقبل الآخر ولا نعرف شيء اسمه الثقافة التشاركية. ولا نعرف لغة الحوار ولا كيف ومتى نبدأ وليس لدينا نواباً حقيقياً للتشاركية في عمليات إعادة البناء قبل تحاصص الشمار ويتحول الحوار وإن وجد متأخراً إلى جلسة تُملئ بها شروط الطرف الأقوى على الضعف قسراً، وقد يُطلب من الأضعف اعتذار فهماً دكتاتورياً للحوار بامتياز.

كل ذلك آل إلى ثورات في أقطار عربية أدت إلى سقوط أنظمة وأخرى على الطريق، وصعدت لأول مرة في التاريخ أحزاب سياسية إلى أعلى هرم السلطة كانت مهمشة ومحنة فهل ذلك يكفي؟؟!

أم أن الثورة يجب أن تستمر لإعادة تأهيل الإنسان لمنظومة فكرية وأخلاقية وحقوقية يتنازل فيها الجميع من الأعلى إلى الأسفل ومن الأسفل إلى الأعلى عن كل الولاءات السابقة؛ كالذاتية والعشيرة والطائفة والمذهب الديني لحساب الدولة المدنية والقانون، نؤمن بجميع حقوقنا وواجباتنا بشكل متساوي نبني سويةً هذه الثقافة ابتداءً من دور الحضانة والشارع ومكان العمل.

هل نحن قادرين حقاً على فعل ذلك؟ كبشر ندعى الحضارة والمدنية، وهل الأحزاب التي صعدت إلى السلطة مؤهلة فكرياً لبلوغ الهدف؟؟.. وهل نحن جمهور الوطن سنتعاون عن حب ورضا لإعادة صياغة تفكيرنا للاعتراف بالقانون ممثلاً شرعاً ووحيداً لنا؟!

سننتظر والأمل أماناً؛ لكن في قلوبنا خشية أن تذهب دماء الشهداء سدى، فعندها لن يغفر بشر ولا حجر لنا، ونكون قد اخترنا الحفر منزل إلى الأبد عن طيب خاطر.

المصادر: